باب المراسلة والمناظرة

﴿ كلمات في النسخ والتواتر واخبار الاحاد والسنة ﴾

رد على الاستاذ الفاضل الشيخ صالح اليافعي (*

(الكلمة السادسة) — في التواتر

أهم مايطعن به في وجوب التواتر فيما يعمل به في الدين مسألة إرسال النبي صلى الله عليه وسلم الآحاد للتعليم وللحكم بين المسلمين وللملوك . فاعلم أن خبر الواحد — كما قلنا — لا يوجب اليقين ولا يجب العمل به إلا إذا أيدته قرائن أخرى قطعية، فهؤلاء الآحاد الذين كان يبعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الجهات للتعليم ما كان يجب على الناس فيها ان يوقنوا بما يخبرونهم به عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يجوز عليهم الخطأ والنسيان كما أنه يجوز عليهم الكذب أو الارتداد . وإنما هؤلاء الناس الذين كانوا في تلك الجهات تحققوا أن رسول الله أرسل إليهم هؤلاء الرسل وأوجب عليهم إطاعتهم والأخذ عنهم، وقبل أن يتحققوا ذلك لا يجب عليهم طاعتهم ولا الأخذ عنهم فهم في طاعتهم لهم وأخذهم عنهم بعد تيقنهم من أنهم مرسلون إليهم من قبل النبي صلى الله عليه وسلم إنما هم مطيعون لله ولرسوله ولأولي الامر، فاذا قالوا لهم ان الرسول قال كذا فاعملوا به وجب عليهم أخذ هذا القول عنهم كما أمرهم الرسول ووجب عليهم العمل به لا لأنهم أيقنوا أن الرسول حقيقة قاله ولكن لأنهم أمروا بطاعة أولياء أمورهم فلا يجوز مخالفتهم أو رفض كلامهم إلا اذا علموا بكذبهم وحينئذ يرفعون الامر إلى رسول الله فيحكم بعزلهم عن تولي أمورهم وتسقط عنهم طاعتهم فيما يروونه عن رسول الله . وعليه فهؤلاء القوم ما كانوا عاملين بالظن وإنما هم مطيعون لامر يسمعونه من أولياء أمورهم

(*) تابع لما نشر في (ص٨٦٦ ج٩م١١) من مقالة الدكتور محمد توفيق افندي صدقي

بآذانهم فيأخذون به ويعملون به كما أمروا وسواء في ذلك أيقنوا أن الرسول قاله أولم يقله فالعهدة فيه على رواته

فان قيل إن لم يكن هؤلاء عاملين بالظن فالرسول نفسه عامل بالظن وإلا فكيف يوفق بأن هؤلاء القوم لا يبلغون عنه إلا ما يريدون؟ — قلت ان الرسول إن لم يعلم ذلك بطريق الوحي كما كان يخبره الوحي بحالات كثيرة مثل هذه عن اصحابه البعيدين عنه كما هو مشهور في سيرته فقد كان صلى الله عليه وسلم يعلم من هؤلاء المبعوثين الصدق والايمان وقوة العقل والعلم بالدين وقد اختبرهم بنفسه زمنا طويلا حتى على اخلاقهم وأميالهم وأحوالهم وسبر غورهم فهو يكاد يجزم بصدقهم واخلاصهم كما يجزم أحدنا — وإن كان نظره أضعف من نظر الرسول — بصدق صاحبه واخلاصه بعد معاشرته له زمنا طويلا في أحوال مختلفة . وان بقي في النفس أدنى شك في ذلك أو تجويز للخطأ أو النسيان عليهم فهؤلاء المبعوثون ما كانوا يذهبون الى جهات منقطعة عن المسلمين بل كان بينهم وبين المسلمين صلة وثيقة وعلاقة كبيرة فكان يأتي منهم الكثيرون الى المسلمين مرات عديدة في السنة للزيارة والتعارف والحج والتجارة وغير ذلك ويذهب اليهم المسلمون لمثل هذه الاغراض فاذا حاد المبعوثون عن شيء مما تلقوه عن رسول الله أو أخطأوا فيه وصل ذلك الى علم رسول الله في أقرب وقت فيصحح هذا الخطأ أو يعزلهم او يعاقبهم . فبالوحي وبقية الأكيدة عن أرسله بعد التحقق منه زمنا طويلا وباخبار الذاهبين اليهم والآتين من عندهم يكون الرسول واثقا على مايبلغ عنه في تلك الجهات ومهيمنا عليه فان حصل خطأ أو كذب في شيء منه فالعاملون به مطيعون لاولياء أمورهم وليسوا عاملين بالظن ولا يلبث هذا الخطأ أو الكذب الا قليلا فينمحه رسول الله صلى الله عليه وسلم في أقرب وقت . وهذه الحالة ضرورية في مبدأ الدعوة حتى يعم الدين تلك الجهات ويكون فيها وفي غيرها مشهورا مستفيضا متواترا فلا يتطرق لشيء منه بعد ذلك ريب أو شك وهي تشبه حالة التلاميذ مع معلمي المدارس وتفهيم العلم عنهم وعملهم به فان الامة رقيبة عليهم فان أخطأوا في شيء أو دسوا عليهم أمرا فسرعان مايصل الى علم الامة وأولياء أمورها فيتلافونه في أقرب وقت

أما أحاديث الآحاد عنه صلى الله عليه وسلم بعد وفاته فهي تختلف عن ذلك اختلافا كبيرا لان رواتها ليسوا أولياء أمر المؤمنين حتى تجب طاعتهم من هذه الوجهة ولم يثق بهم الرسول ولم يعرفهم ولم يعينهم لهذا الامر ولم يقم رقيبا عليهم لا بالوحي ولا بأخبار الناس عنهم فالفرق بين الحالتين عظيم

أما رسله صلى الله عليه وسلم إلى الملوك فالغرض من ذلك إلفات نظرهم إليه وتنبيههم للبحث في دعوته وتشويقهم للنظر في أمره وحالته وإلا فلا يمكن الايمان لاجلها إلا بعد التثبت منها والتحقق من أمر الدعوة والداعي فهي كالتمهيد للدعوة الحقيقية بوصول الدين اليهم متواترا على أيدي الناس كما حصل بعد وفاته

والخلاصة ان القرآن الشريف يذم العمل بالظن كثيرا فلا يمكن ان الله سبحانه وتعالى يلزم عباده المؤمنين بالعمل بما لا يوجب عندهم اليقين وإلا كان أمرا لهم بما يذم به غيرهم ويلومهم على اتباعه

وحيث أن أحاديث الآحاد من حيث هي لا تفيد اليقين كما بيناه في الكلمة الرابعة فلذا اشترطنا التواتر فيما يجب علينا الاخذ به في الدين فدليلنا على ذلك مبني على حكم العقل وما جاء به الكتاب العزيز

(الكلمة السابعة) — معنى السنة وبيان وجوب العمل بها

السنة في اللغة وفي اصطلاح السلف هي الخطة والطريقة المتبعة فسنته صلى الله عليه وسلم هي طريقته التي جرى عليها في أعماله واقتدى به أصحابه فيها وهي واجبة الاتباع حتما على كل من آمن به وصدقه صلى الله عليه وسلم وهذا هو المراد بما جاء في الحث عن اتباع السنة في أقوال الصحابة والسلف رضوان الله عليهم جميعا كما لا يخفى على متأمل في أقوالهم ومن ذلك حديث «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي» أي عليكم بطريقتي وطريقة خلفائي الراشدين من بعدي فلا نزاع في أن اتباع طريقة النبي صلى الله عليه وسلم في الدين هي واجبة على جميع أتباعه المؤمنين أما أقواله صلى الله عليه وسلم التي لم تكن طريقة متبعة له ولا لاصحابه فهي موضوع بحثنا وهي المقصودة في مقالاتنا الاخيرة تلك التي رواها الآحاد وانفردوا بها ولو كانت واجبة الاتباع لعلمها الناس جميعا في عصره عليه السلام وجروا عليها في أعمالهم

وهذا هو أدل دليل على أنها لم تكن دينا عاما لجميع البشر بل هي خاصة لمن وجهت اليهم لاحوال خاصة وظروف مخصوصة أو انها كانت للارشاد والندب لا للوجوب ولذلك لم يكن اتباعها عاما بينهم . فهناك فرق عظيم بين لفظ (السنة) ولفظ (الاحاديث) ويجب على كل باحث في هذا الموضوع أن يدرك هذا الفرق جيدا حتى لا يقع في الخلط والخبط . وقد أدرك الامام مالك هذا الفرق فكان — رضي الله عنه — يقدم عمل اهل المدينة على الاحاديث ويرد منها ما خالف سنتهم التي ورثوها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو صحت أسانيدها وقد رد من ذلك مئات كثيرة

أما تسمية الاحاديث مطلقا بالسنة فهي من اصطلاح المتأخرين ولولا هذا الاصطلاح لما احتجنا في مقالاتنا الى تقييد لفظ السنة بقولنا (العملية) فان السنة لا تكون الا عملية وأما القول الذي يقال ولا يكون مبدأ يجري عليه العمل دائما فلا يسمى سنة عند المتقدمين

فاتباع سنة أي شخص هي الجري على منهجه والتزام طريقته ومبادئه وأصوله وليس معنى ذلك أن يتقيد المتبع بكل جزئية من جزئيات كلام المتبوع ، مثلا قد أكون متبعا لسنة الاستاذ الامام رضي الله عنه في تفسير القرآن الحكيم ومع ذلك أرى في بعض الآيات خلاف ما يرى ولا يخرجني ذلك عن كوني متبعا سنته فان سنته هي في ترك التقليد واستعمال العقل وعدم القول بالنسخ وتحري الحق والصواب لا في التزام كل قول من أقواله التزاما أعمى فكذلك ترك بعض أقواله صلى الله عليه وسلم في الامور الدنيوية المحضة وما حكم فيه بالرأي والاجتهاد وما خالف المصلحة في زمننا لا يخرج المسلم عن كونه متبعا سنته صلى الله عليه وسلم فان سنته هي في اتباع الحق والصواب وتجنب الضار ومراعاة المصالح كما دل عليه الكتاب العزيز وترادفت فيه الاخبار المتعددة المصادر المختلفة المبنى المتحدة المغزى وكما جرى عليه عمل كبار المسلمين وعقلاؤهم في كل زمان ومكان . فسنته صلى الله عليه وسلم هي في اتباع مبادئه الشريفة والجري على خطته ومنهجه وإطاعته فيما أوحي به إليه أو ما وافق الصواب والمصلحة من آرائه واجتهاداته وليست سنته في الجمود والتقليد

والبعد عن العقل والتفكير كما عليه أكثر المسلمين اليوم ولذلك كان أصحابه يخالفونه في كثير من المسائل في حياته وكان عليه السلام يرجع عن رأيه لآرائهم ولذلك أمر بمشاورتهم وما قال أحد بأن من خالفه منهم خرج عن سنته فان سنته هي الشورى والتفكير ورعاية مصالح العباد وتحري العدل والانصاف وعدم الاستبداد بالرأي . وقد خالف أصحابه رضوان الله عليهم في حياته وبعد مماته بعض أقواله وبعض ما حكم به مراعاة للمصلحة ولولا خوف الاطالة لذكرت شيئا من ذلك كثيرا وقد وفيت هذا البحث في رسالة لي طويلة وفقنا الله لطبعها عن قريب

وسنته صلى الله عليه وسلم في الامور تعلم من نصوص الكتاب العزيز وما تواتر بين المسلمين عنه قولا وعملا ومن مجموع ما روي عنه من المصادر المختلفة في المسائل المتعددة . فسنته معلومة للمسلمين باليقين وواجب اتباعها على جميع المؤمنين . وهذا هو المراد بما جاء في الكتاب الكريم من الأمر باتباعه والاقتداء به والجري على منهجه والاهتداء بهديه صلى الله عليه وسلم وهو أيضا المراد مما ورد عن أصحابه وعن سلف المسلمين من القول بوجوب اتباع السنة النبوية

وأما أخبار الآحاد التي لم يجر عليها العمل بلا انقطاع بين المسلمين فهي موضوع النزاع في كل عصر وجيل كما يتضح لك من الكلمة الآتية :

(الكلمة الثامنة) — آراء أئمة المسلمين في أخبار الآحاد وما قالوه فيها وكيفية معاملة الصحابة لها

(١) قال الامام أحمد بن حنبل ما معناه : إن الأحاديث الواردة في تفسير عبارات القرآن الشريف لا أصل لها . كما نقله عنه الحافظ السيوطي في الاتقان

(٢) وقال الامام الشافعي « إن نسخ القرآن بالحديث لا يجوز »

(٣) وقالت الظاهرية : إن تخصيص عموم القرآن بها غير جائز وأن العمل بها غير واجب

(٤) وقال جمهور الاصوليين « إنها ظنية »

(٥) وقال جمهور المسلمين « إنه لا يجوز الاخذ بها في العقائد »

(٦) وقال كثير من الأئمة كالقاضي عياض « إنه لا يجب الاخذ بها في المسائل الدنيوية المحضة ولو كانت موثوقا بها »

(٧) وقال جميع المحدثين « إن الموضوع منها كثير وتمييزه عسير وفي بعض الاحوال مستحيل » راجع ما ذكرناه في الكلمة الرابعة

(٨) وقال أبو حنيفة وأصحابه من أهل الرأي والقياس « ان الصحيح منها قليل جدا » حتى أنه لم يأخذ إلا بمئة عشر حديثا

(٩) وقال مالك رضي الله عنه « إن عمل أهل المدينة مقدم عليها » وكذلك أهل الرأي والقياس يقدمون القياس الجلي عليها

(١٠) أجمع جمهور المسلمين على عدم تكفير من أنكر أي حديث منها

(١١) إن تناقضها كثير ومعرفة ناسخها من منسوخها عسير أو مستحيل وكذلك اكثر اسباب ورودها

(١٢) قام الدليل القطعي على ان الله لم يتكفل بحفظها من التحريف والتبديل والزيادة والنقصان

(١٣) لم يجمعها الصحابة ولم يتفقوا عليها

(١٤) لم يبلغوها إلى الامم بالتواتر مع علمهم بأن اتباع الظن غير جائز في الاسلام إلا لضرورة

(١٥) انهم نهوا عن كتابتها وأمروا باحراق ما كتبوه منها كما في الروايات التي صححت عندكم

(١٦) قد نهى بعضهم عن التحديث وكرهه وكذلك علماء التابعين

(١٧) كان أفاضلهم أقل الناس حديثا ويصدقون عنه ولو كان واجبا لما كان هذا حالهم

(١٨) من كان من الصحابة كثير الحديث ملوا منه ونهوه وزجروه كما فعل عمر بأبي هريرة وشكوا فيه وقالوا إنه يضع الشيء في غير موضعه ونسبوه للجنون كما في كتبكم

(١٩) إن أئمة المسلمين لم يتفقوا على الصحيح منها وما منهم من أحد إلا خالف في مذهبه كثيرا منها

(٢٠) لم يعتن المسلمون بحفظها في صدورهم كما اعتنوا بحفظ القرآن الشريف فاذا كان هذا حال الاحاديث وما قاله المسلمون فيها وما عملوه بها فأي فائدة منها نرجون ؟ وأي ثقة بها تثقون ؟ وأي شيء خالفت فيه الاجماع أو ابتدعته حتى أرمى بالكفر أو المروق ؟ مع أن هذه المطاعن وأمثالها كثير لم يخل منها عصر من عصور المسلمين ولم تصدر إلا منهم . فيجب علينا أن نقدر أخبار الآحاد قدرها ولا يعمينا الجهل والتعصب عن حقيقة أمرها

أما قول حضرة الاستاذ الفاضل الشيخ اليافعي في الجواب عن بعض هذه المطاعن إن الصحابة اختلفوا في جمع القرآن وكتابته فهو لا يرد شبهة ولا يدحض حجة . فان القرآن الشريف من عهد رسول الله الى اليوم قد حفظ حفظا جيدا في الصدور لم يسبق له مثيل ولم يعرف عند أمة أخرى في كتبها . وكتب في عصر النبي صلى الله عليه وسلم وبأمر منه عليه السلام وباملائه على ما عرفوه إذ ذاك من أنواع القرطاس (كل ما يكتب عليه) ولم يختلف أحد منهم في وجوب كتابته ولم يمت عليه السلام الا بعد أن كانت جميع سوره مرتبة الآيات محفوظة في صدور الجماهير مكتوبة في سطورهم المحفوظة عندهم وانما كان اختلافهم بعد وفاته عليه السلام في كيفية جمعه على طريقة لم يكونوا يعرفونها من قبل وما كانوا عهدوها وهي كتابته على صحف من الكاغد (كالورق الآن) مع ضم هذه الصحف بعضها الى بعض بالطريقة المعروفة اليوم في عمل الكتب فان الكاغد وعمل ما نسميه الآن كتبا ما كان معروفا لهم في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وانما هو رقي في الصناعة التابع لرقيهم في المدنية بعد وفاته عليه السلام ولو كانوا علموه من قبل لعملوا المصاحف في زمنه ولما اختلف في ذلك منهم اثنان (راجع مقالة تاريخ المصاحف المنشورة سابقا في المنار) . ولما لم يأت رسول الله صلى الله عليه وسلم بتعليم الناس شيئا من الصناعات وغيرها من أمورهم الدنيوية التي يمكنهم أن يصلوا اليها بعقولهم وتدرجهم في سلم المدنية واقتباسهم أشياء من الامم الاخرى الراقية فلذا لم يوح اليه عليه الصلاة والسلام بتعليمهم صناعة ما نسميه الآن ورقا وكتبا كما أنه لم يوح اليه بتعليمهم أي

صناعة أخرى بل تركوا وشأنهم حتى يصلوا الى ذلك بمرور الزمان

والخلاصة أن القرآن محفوظ في الصدور مكتوب في السطور من عهد الرسول وبأمره لم يختلف في ذلك أحد وإنما الاختلاف كان في مجاراة الترقي في الصناعة. وقد ترقت صناعة عمل المصاحف شيئا فشيئا كما ترقى كل شيء آخر حتى وصلت الى ما وصلت اليه في عصرنا الحالي

وأما كتابة الاحاديث فقد كتبت فيها مرات وأفاض القول فيها بعلمه الواسع استاذ المنار فلا حاجة للتكرار

(الكلمة التاسعة) — أسباب استشهادي بأحاديث الآحاد في مقالاتي —

إعلم بأن من الحجج مايسمى (بالاقناعي) وذلك ان يحتج على الخصم بما هو مسلم عنده كأن يحتج على النصراني ببعض مافي الانجيل الحالي وان كنت غير معتقد له. فأنا أورد الاحاديث غالبا لا لاثبت معتقدي لنفسي بل لاقنع من لا يقنع الا بها ولست أعول في براهيني القطعية إلا على مايفيد اليقين فما اذكره من الاحاديث إما لاقناع المسلمين وإلزامهم بها او التكثير من الادلة بضم ضعيفها الى قويها ليقوى بها مع استعمال مبدأ الاستنتاج والنقد فيها. وقد اتبعت في ذلك خطة علماء التاريخ العصريين فانهم يؤيدون آراءهم في التاريخ القديم ببعض مايعثرون عليه من الروايات ولو كانت من الاساطير ويستنبطون منها مالا يستنبطه الجهلاء من الحقائق بعد ان يستنيروا في دياجير ظلماتها بمصابيح من نور العقل والعلم فانه قد جرت عادة الناس بتضمين حكاياتهم شيئا من حقائق التاريخ فيأتي أهل النظر والبحث فيعرفونها ويلتقطونها من وسط الخرافات ويتثبتون من صحة ما التقطوه بالاقيسة المنطقية والقضايا العقلية فاذا أراد بعضهم ان يعرف مثلا أصل الحجر الاسود عندنا عمد الى رواياتنا فيه وحكمها بمحك النقد والعقل فاذا سمع رواية « ان الله استودع الحجر أبا قبيس حين اغرق الله الارض زمن نوح عليه السلام وقال له اذا رأيت خليلي يبني بيتي فأخرجه له فلما انتهى ابراهيم لمحل الحجر نادى ابو قبيس ابراهيم فاذا فتح فمه فخذ حجرك فجعله في البيت » استنتج منها بعد ان يزيل قشورها ولوعثها حقيقة هذا الحجر وهو ان اصله قطعة انشقت من ابراهيم عليه السلام من احجار جبل ابي قبيس السوداء القريبة من الكعبة ووضعها في محل

لو كان الكعبة علامة على الركن الذي يبتدأ منه بالطواف ليعرف الطائف كم مرة طاف بالبيت وليتدئ الناس بالطواف من نقطة واحدة حفظا للنظام وتسهيلا للطائفين (١) وكذلك يأخذ علماء التاريخ كثيرا من حقائق تاريخ اليونان مثلا مما يجدونه عندهم من الاشعار والحكايات القديمة كالياذة (هومير) فاذا كان هذا مايفعله العلماء في الاساطير فهل يستنكر مني أن استشهد لتوهم بأحاديثهم الصحيحة المسلمة عندهم وهي التي يعولون عليها في مذاهبهم ؟ وماذا يكون قولهم إذا لم أؤيد مقالي بشيء من ذلك ؟ أما كانوا يقولون إنها محض رأي له غير مؤيد بشيء من النقول ولو كان صحيحا ما خلت أحاديثنا منه فانها تكاد لا تغادر شيئا (إني والله لفي حيرة من أمرهم ! !) على ان كثيرا مما أذكره في مقالاتي مروي عن كثير من الصحابة بالاسانيد المسماة عندهم صحيحة والروايات فيه مترادفة تكاد توجب اليقين والقول بأنها جميعا موضوعة لايكفي عند الباحثين في نشوء الروايات لاروائها وشياع تهمتهم في العلم فلا بد إذاً من البحث والتنقيب . ولو رفض المسلمون الآن ما ألزمهم به من الاحاديث بعد تدوينهم لها في كتبهم واعتبارهم لها صحيحة أفما

---

(١) حاشية للكاتب — تقبيل الحجر الاسود هو كتقبيل آثار رجال التاريخ العظام احتراما لهم واجلالا لشأنهم وحبا فيهم كمن يقبل سيف نابليون أو دواة شكسبير وقلمه ان وجدت ولكل أمة آثار موروثة عن رجالهم العظام ويقبلونها وهذا الحجر هو من آثار إبراهيم في بنائه الكعبة ومحفوظ بالتواتر في الامة العربية فقط قبله رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قبل غيره من أركان الكعبة واتبعه المسلمون في ذلك إلى اليوم وإن لم يقل أحد منهم بوجوب ذلك ولم يذكر هذا الحجر في القرآن الشريف . ومن اعتقد أن شيئا من هذه الآثار يضر أو ينفع فقد خرج عن عقله وكفر بالله ورسله . ومن العجيب أن الافرنج يسمون تقبيلنا لهذا الحجر عبادة — مع أن التقبيل لا يسميه أحد في الدنيا عبادة — ولا يسمون سجودهم لصورهم وصلبانهم وتقديسهم وتقديسانهم والخبز في قربانهم — لا يسمون ذلك عبادة لهذه الاشياء مع أنه شتان ما بين السجود والتقبيل فانظر وتعجب ! ! !

يكونون متصفين ؟ وكيف إذا يكون التمييز عندهم بين الصحيح والضعيف والموضوع ؟ فاللهم اجعل العقل رائدنا . وأثر بصائرنا . واجعل كتابك هادينا ومرشدنا . ونبيك إمامنا وقدوتنا ولا تخزنا يوم يبعثون يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم

المنارة

« بكتاب تاريخ العرب قبل الاسلام » (*)

لحضرة جرجي افندي زيدان

ذكرنا في مقالنا الآنف الامر الأول من الامور التي تؤخذ على المؤلف وهو « تردده أو انكاره بعض الحقائق التاريخية البديهية في موضع . وتشبثه بتحقيق بعض الظنون والتخرصات في موضع آخر اعتماداً على أوهام وتخيلات قامت بذهنه فقط » ومثلنا للشق الاول من هذا الامر وأدحضناه بما عرفه القراء . والآن نمثل للثاني ونأتي على بقية الامور التي تؤخذ على المؤلف فنقول :

مثال الثاني — انه عند ما تكلم على دولة النبط في بطرا نقل عن التوراة وعن كاترمير الفرنسي وعن كوسين دي برسفال وعن آخرين ما يفيد أن الانباط ليسوا عربا وانهم آراميون اتوا من الشرق فأجلوا الادوميين عن بطرا واحتلوها ثم رفض كل هذه النصوص والآراء وغيرها من النصوص التي لم يذكرها مما جاء في السفر الاول من اسفار المكابيين وفي تاريخ يوسفيوس من غير ان يذكر برهانا واحدا على نقضها واستنبط هو بنفسه انهم عرب وذكر لذلك دليلين : الاول ان اليونان حينما ذكروهم سموهم عربا (ولعله يعني تقسيمهم جزيرة العرب إلى عرب بترية في الشمال وسعيدة في الجنوب) والثاني ان أسماء ملوكهم عربية . وهما دليلان

(*) تابع لما نشر في ص ٦٨١ م ١٦ من مقالة الشيخ أحمد الاسكندري

يتضا لان امام النصوص التاريخية ولا سيما اذا كان ثمة ما يجعل هذين الدليلين ينعكسان على غير مراد المؤلف فيكونان حجة عليه لا له . ونحن نتفي أولا هذين الدليلين ثم نأتي بأدلتنا الوجودية على آرامية النبط أما الدليل الاول فان تسمية اليونان لسكان الشمال العربي من جزيرة العرب بالعرب البترية هي تسمية جغرافية كما اننا نسمي ما وراء اسوان بالسودان مع ان أكثرهم عرب لا زنوج وكما نسمي الصحراء الشرقية من مصر الصحراء العربية مع ان سكانها من البشارية والبجاة لا يعرفون العربية، على ان جميع ما عرف من حروب القائد اليوناني انتيفونوس وابنه ديمتريوس أنه وجد حولهم قبائل يظاهرونهم ويستجيبون لصراخهم ويؤيد ذلك ما نقله حضرة العلامة المفضال جبر ضومط عن يوسفيوس (جزء ثالث . مجلد ٣٣ مقتطف) على ان سفر المكابيين من التوراة سماهم نبطا وجعل العرب احلافا لهم حينما استعان بهم يهوذا المكابي وهو كان معاصرا لهم أيضا

وأما الدليل الثاني — فان ماعثر عليه من اسماء الملوك العربية لا يثبت ان الشعب عربي فقد ثبت ان النبط في آخر أمرهم خضعوا للعرب وخصوصا قضاعة وان الملوك الذين عاصروا منهم ملوك اليونان هم عرب حكموا أمة النبط كما يستفاد من تاريخ يوسفيوس . وكما اننا لا نسمي الامم الهندية انجليزا لان امبراطور الهند انجليزي كذلك لا نسمي النبط عربا لان ملوكا في بعض الاحيان كانوا عربا على ان هذه الاسماء لم تكن خالية من التحريف والصبغة الآرامية والعبرية مع اننا عثرنا على كثير منها مكتوب بالخط النبطي نفسه لا اليوناني الذي هو مظنة التحريف واما كون لغة الكتابة عند النبط غير لغة التخاطب فهو مما لم يقم عليه دليل وما كان أحوج المؤلف الى ذكره لو وجده

أما أدلتنا على ان النبط ليسوا عربا وانهم خليط من الادوميين القدماء ومن الآراميين الذين جاءوا مع بختنصر ومن اليهود ومن العرب فهي :

(١) ماهو مشاع مستفيض عن العرب قبل الاسلام وبعده ان النبط غير العرب وانهم كانوا يعيرون العربي بأنه نبطي واعتبر كثير من الفقهاء ان نداء

العربي يا نبطي قذف وسب ناهيك بقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه لاتكونوا كنبط السواد إذا سئل عن نسبه قال أنا من بلد كذا

(٢) إن لغتهم لغة خاصة بهم تخالف العربية وتنال حظا من الآرامية وحظا من العبرية وحظا من العربية . بل فيها كثير من اليونانية

(٣) إن جميع النصوص التاريخية من التوراة في إشارة أرميا وحزقيال وفي أسفار المكابيين ما يفيد ان النبط غير العرب وان الإله انتقم من الادوميين وضربهم بغارة بختنصر فدمر عليهم وأورث الارض من بعدهم الكلدانيين الذين جاءوا معه من بابل وان النبط كانوا في بعض أدوارهم احلافاً لليهود المكابي وانهم استأجروا جيوشا من العرب يظاهرونهم وهذا يدل على ان المستأجر غير الاجير

(٤) ما جاء في تاريخ يوسفيوس من ان النبط بقوا مستقلين عن العرب الى أيام الاسكندر مانيوس بن ارستو بولوس بن يوحنا هركانوس بن سمعان أخي يوناتان ويهوذا المكابي اليهودي فانه بعد وفاة هذا الملك اخضعهم العرب وقام منهم عليهم عدة ملوك كانوا يسمون تارة ملوك النبط وتارة ملوك العرب وان كانت الجنسية متميزة بينهما وبقوا كذلك الى ان استولى عليهم الرومان سنة ١٠٥ م

(٥) حقق كل من كاترمير الفرنسي وكوسين دي برسفال وغيرهما من علماء الآثار ان سكان بطرا بعد الادوميين هم أمم نازحة من العراق وبابل ولا ينطبق ذلك إلا على زمن بختنصر اذ سكان بطرا قبل بختنصر لم يعرفوا إلا باسم الادوميين وبعده لم يعرفوا إلا باسم النبط مع انه من الثابت ان بختنصر أباد الادوميين تحقيقا لوعيد حزقيال وأرميا النبيين من ان الله ينزل عليهم بلاءه ويجعل جبال عيصو خرابا وميراثا لذئاب البرية وانه حارب العرب حتى كاد يفنيهم فلو كان النبط عربا لما استبقاهم فيها فظهر من ذلك أن الانباط بقايا القبائل الآرامية التي سكنها بختنصر في بطرا ليكونوا حراسا وتقلة لتجارة بابل لان فتوحاته كانت كلها تجارية ثم امتزجوا بغيرهم من اليهود والعرب وما يرى في لغتهم من الالفاظ العربية لا يربو على ما يوجد في العربية المضرية من الالفاظ العبرية

على ان المؤلف لما أحس بضعف دليله عن تحريره تلك الحلة التي هاجمها في

اكثر من خمس صفحات من كتابه مع تيقنه ان المكتوب من آثارهم ليس عربيا زعم بلا دليل ان لغة تخاطبهم غير لغة كتابهم ثم رجع وقال:

«على اننا لا نظن اللغة العربية التي كان يتفاهم بها النبطيون هي نفس اللغة العربية التي عرفناها في صدر الاسلام ولا بد من فرق بينهما اقتضاه ناموس الارتقاء» هذا مع علمنا ان النبط دخلوا في حوزة الرومان في أوائل القرن الثاني بعد الميلاد واننا نروي كثيرا من شعر العرب وامثالهم منذ القرن الرابع من الميلاد مما يظهر لنا تمام الاظهار ان هذه اللغة العربية الفصيحة باعرابها واشتقاقها وكثرة اساليبها التي لا تتناهى قد تكونت بهذه الصورة قبل ذلك بكثير أي وقت ما كان النبط نبطا بل قبل هذا الوقت ولا سيما اذا علمنا ان اللغة العربية هي لغة أهل بادية وهم أبعد الناس عن الانقلابات اللغوية كما يصرح بذلك حضرة المؤلف في أكثر من موضع من كتابه

(٦) ان النبط الذين كانوا في الشرق في صحراء الكوفة وعلى ضفاف الفرات وبقوا متميزين عن العرب الى ما بعد الاسلام بنحو مئة وخمسين سنة هم يشبهون نبط الشام من أكثر الوجوه بدليل أن ما وجد من آثارهم ومعبوداتهم وخطوطهم يدل على انهم من عنصر واحد واطلال تدمر والخط التدمري صنو النبطي تشهد بذلك فان كان نبط الشام خالطوا قضاعة فنبط العراق خالطوا لخما وجذاما وبكرا وتغلب وعبادا

ومن أمثلة الشق الثاني وهو تشبثه بتحقيق بعض الظنون الخ انه عند ما تكلم على دول اليمن ذكر من بينها دولة زعم ان العرب لم تعرفها وهي أهل (معين) وقفى على أثر ذلك بأن استظهر انها أمة قديمة جدا تبتدئ أخبارها منذ أربعين قرنا قبل الميلاد لعثورهم على أثر قديم من آثار بابل ذكر فيه بالخط المسماري « ان زام سين حمل على مغان وقهر ملكها معنيوم » واستنتج ان مغان هذه هي مغان طور سينا وأن الميم في «معنيوم» للتنوين و بالطبع يعتقد ان اللفظ حرف واختزل حتى صار (معينا) وكذلك نقل عن سفر الاخبار «أن الله أعان عزيا على الفلسطينيين وعلى العرب القيمين بجوار بعل وعلى المعونيين» أي المجاورين طبعا للفلسطينيين وكل هذه الحوادث حدثت في برية الشام والامة يمانية

أيها المنكح الثريا سهيلا عمرك الله كيف يلتقيان

هي شامية اذا ما استقلت وسهيل اذا استقل يماني

ولو كان الشبه بين لفظين يكفي ان يبنى عليه تاريخ أمتين لقد حق لنا ان نقول على التاريخ العفاء

ثم اقتضب الكلام ورأى رأيا أخيرا انهم من جالية الآراميين أتوا من العراق في هذه العصور السحيقة واستعمروا اليمن ثم اشكل عليه الامر بأن المعينيين لو كانوا من العراق لكتبوا بالخط المسماري مع ان آثارهم مكتوبة بالخط المسند المشتق من الفينيقي فلم يرحلا لهذا المشكل سوى ادعائه بانهم استبدلوا بالخط المسماري الخط الفينيقي لسهولة هذا الاخير في نظره !!! ولكن كل هذه المراقة في القدم لم تمنعه من وصفهم في موضع آخر انهم كانوا معاصرين للسبئيين الذين لم تبتدئ دولتهم على رأيه الا في القرن الثامن قبل الميلاد ونقل عن اليونان في صفحة (١٩٦) ان هذه الامم وغيرها كانت متعاصرة وان عاصمتهم (مأرب) ثم يتشبث في موضع آخر بأن القحطانيين السبئيين كانوا بعد المعينيين أو انهم ورثتهم أو انهم حبشان أو انهم عمالقة جاءوا من مصر هذا الى اضطرابات وتناقضات توقع طالب التاريخ في حيرة وارتباك يهون عليه معهما نبذ كل هذه التخرصات والاعتقاد بأن كل هذه الامم كانت قبائل متجاورة في خنائف متقاربة أعظمها مأرب

الامر الثاني من الامور التي تؤخذ على المؤلف — تناقض عبارات كتابه في عدة مواضع

منها ادعاؤه ان اسماء ملوك حمير لم يكن بينها اسماء عدنانية حتى قال في صفحة (١٦٦) لم نجد لذلك أثرا في الآثار المنقوشة ثم نقل في صفحة (١٥٩) اثرا عظيما لابرهة الحبشي وفيه يسمي ولاته من حمير واقيالهم يزيد وكبشة ومرة وثمامة وحنشا ومرثد كما تقدم

ومنها تناقضه في ان الجباثيين لم يعرفهم العرب بل عرفهم اليونان وحدهم ثم ذكر في صفحة (١٣٤) ان الهمداني في كتابه صفة جزيرة العرب قال وجبأ مدينة المفاخر وهي لآل الكرندي من بين ثمامة آل حمير الاصغر مع ان اليونان لم يذكروهم بأكثر من انها قبيلة تجارية

ومنها تناقضه في استظهار أن السبئيين حبشان ثم ذكر في صفحة (١٣٦) ان المعينيين القادمين من العراق نقلوا معهم حضارة العراق ونظام حكومته وقسموا اليمن الى محافد وقصور وطمعوا في جيرانهم واخضعوهم وانشئوا الدولة المعينية والسبئية والحميرية

ومنها تناقضه في ان المعينيين لم تعرفهم العرب مع انه نقل في صفحة (١١١) عن الهمداني في كتاب الاكليل ان « محافد اليمن براقش ومعين وهما بأسفل جوف الرحب متقابلتان فمعين بين مدينة نشان و بين درب شراقة » وروى ان مالك بن حريم الدلاني يقول فيها

ونحمي الجوف مادامت معين بأسفله مقابلة عرادا

وفيها وفي براقش يقول فروة بن مسيك

أحل بمحابر جدي عطيفا معين الملك من بين البنينا

وملكنا براقش دون أعلى وانهم اخوتي و بني ابينا

ومنها تناقضه في أن العرب لم يعرفوا دولة النبط في الشام ثم ذكر في عدة حوادث انهم عرفوها خصوصا في صفحة (٧٩) حيث نقل عن ابن خلدون وحمزة الاصفهاني معرفتها لنبط الشام وان بطرا كانت تسمى بعد الاسلام الرقيم ولهم فيها شعر هذا الى مناقضات كثيرة لا تسع سردها ولا تفصيلها هذه العجالة

الامر الثالث من الامور التي تؤخذ على المؤلف جسارته على وضع الاسماء والتقسيمات التاريخية مع ضعف الاستظهار كتقسيماته أدوار تاريخ العرب وكتسميته الامة التي سماها استرابون اليوناني جرهيين بالقريبين نسبة الى قرية وهي اسم اليمامة قديما وهم الذين قال فيهم استرابون « انهم أغنى أهل الارض ويكثرون من آنية الذهب والفضة ويزينون جدران منازلهم بالعاج والذهب والفضة والاحجار الكريمة » فمتى كان أهل اليمامة أغنى أهل الارض ومتى كان لهم جدران تزين بالذهب والفضة والاحجار الكريمة!!؟ أليس كلام استرابون أشبه بالخرافات التي تقال عن مدينة شداد بن عاد (إرم ذات العماد) التي يبكت حضرة جرجي افندي زيدان جهلة مؤرخينا على ذكرهم

لها! ولكنه لا يبكت استرابون بل لم يكتف بقوله حتى حرف لفظه (جرها) بلفظ (قرية) وجعل اهلها دولة لم تعرفها العرب وفتح بابا لها خاصا في كتابه ورسمها على المصور الجغرافي !!

الامر الرابع من الامور التي تؤخذ على المؤلف ارتياب القارئ في تهجينه أخبار العرب في حوادث الفخر والغلبة كفتوحات شمر يرعش وأسعد ذي كرب في آسيا وأفريقس في أفريقيا وحسان بن تبع . وتصديقه خرافات استرابون وهيرودوت مع انهما لم يدخلا بلاد العرب ولم يرياها . واقرأ ما نقله عن استرابون في صفحة (١٣٨) تتحقق صدق ماقول وهذا نصه :

« وذكر استرابون ضربا من الاشتراكية عند أولئك العرب غريبا في بابه فبعد ان أورد اشتراك كل عائلة بالاموال والمتاع بين أفرادها وان رئيسها أكبر رجالها سنا قال : والزواج مشترك عندهم يتزوج الاخوة امرأة واحدة فمن دخل منهم اليها أولا ترك عصاه بالباب والليل خاص بأكبرهم وهو شيخهم وقد يأتون أمهاتهم ومن تزوج من غير عائلته عوقب بالموت . كان لاحد ملوك العرب ابنة بارعة في الجمال لها ١٥ أخا كل واحد منهم يهواها حتى ملتهم واحتالت على منهم بعصي اصطنعتها تشبه عصيهم وكان لكل منهم عصا عليها علامته . فكانت إذا خرج أحدهم من عندها حمل عصاه ومضى فتضع هي مكانها العصا التي اصطنعتها على مثالها فيتوهم سائر الاخوة أنه لا يزال عندها وقد يجيء أحد يفقد الباب ولما يرى العصا بجانبه يرجع فتبدل العصا الاولى بعصا مثل عصاه وهكذا . فاتفق مرة ان الاخوة كانوا جميعا في ساحة ورأى أحدهم بباب أخته عصا وليس من إخوته أحد غائبا فظن فيها السوء فشكاها إلى أبيها ولما اطلع على عذرها برأها . هذه حكاية استرابون ولم نذكرها إلا لغرابتها ولا نعلم مقدار ما فيها من الصحة » اه

يذكر هذه الحكاية هنا بالتفصيل و يعتذر بهذا العذر مع انه عند ما يقتضي المقام شيئا صحيحا تاريخيا عن العرب يدمجه ويجمل فيه ويحيل القارئ على الكتب الاخرى ! !

الامر الخامس سوء التعبير من الوجهة الدينية في عبارات الكتاب كقوله في صفحة (١٠) أقدم المصادر العربية المدونة عن تاريخ العرب وأقربها إلى الصحة القرآن (؟)

الامر السادس من الامور التي تؤخذ على المؤلف انه أغفل مدة حكم الفرس على اليمن بعد ذي يزن فلم يذكر أحدا من عمالهم مع ان عمال كسرى استمروا يحكمون اليمن الى الاسلام فكان آخرهم باذان الذي كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسلم ثم صارت اليمن الى الاسلام

الامر السابع من الامور التي تؤخذ على المؤلف كثرة شكه وتردده وتناقضه في اكثر الموادث حتى انه لا يرى المطلع على كتابه خبرا مبرهنا على صحته بدليل مقنع ويظهر ذلك ظهورا بينا في آرائه الخاصة واجتهاداته التاريخية

الامر الثامن من الامور التي تؤخذ على المؤلف تخريجه الاعلام تخريجا غريبا قال ان اسم امرئ القيس يظنه محرفا عن مرقس ! ! وان اسم الحارث ربما كان ترجمة جيورجيوس واسم صخر ترجمة بطرس ! ! الخ ما ذكر من التخريج

الامر التاسع اختصاره التاريخ جدا وهو أحد العيوب التي عابها على مؤرخي العرب فلم يسلم هو منها والكمال لله وحده

تراجم عربية شهيرة

ترجمة الخنساء (*)

هي السيدة تُماضِر الصحابية الشهيرة الجليلة بنت عمرو بن الحرث بن الشريد من سراة سُليم ، كانت رضي الله عنها من شواعر العرب المشهود لهن بالتقدم ، وإنما لقبت الخنساء تشبيها لها بالظبية لان الخنس من صفات الظباء وهو تأخر

(*) خلاصة درس القاه على طلاب مدرسة القضاء الشرعي الشيخ محمد المهدي الاستاذ المشهور المدرس بمدرسة القضاء